دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الخطية والتسطح في بناء مقاربة منهجية شاملة للنقد المعماري والعمراني
المصدر:	مجلة مسارات
الناشر:	مركز مسارات للدراسات الفلسفية والإنسانيات
المؤلف الرئيسي:	السبيعي، عبيد
المجلد/العدد:	ع14
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الشهر:	ربيع
الصفحات:	28 - 65
رقم MD:	945153
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الهندسة المعمارية، العمارة الإسلامية، التخطيط العمراني، تخطيط المدن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/945153

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الخطية والتسطح
في بناء مقاربة منهجية شاملة للنقد المعماري والعمراني

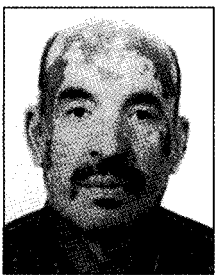

د. عبيد السبيعي (*)
sebei.abid@hotmail.com

السنة الخامسة - العدد 14 - ربيع 2018

ملخّص

تهدف هذه المقاربة المنهجية في معالجتها لمسألة الحيز والمدينة في بعدها الإنساني، إلى تحويل قيم هذه المسألة ومفاهيمها إلى مؤشرات محسوسة قابلة للقياس وخاضعة للنقد والتحليل انطلاقا من أبعادها الواقعية والاجتماعيّة والفكرية بما تمثله لها من مرجعيّة شاملة.

كما تعد هذه المقاربة إضافة علميّة هامّة، تسمح بتفكيك هذا الثنائي وفهم طبيعته والغوص في أبعاده العلمية والمعرفية. وتسمح تبعا لذلك بالتحرر من المواقف الجاهزة والأفكار المسبقة والمفاهيم المسقّطة، لتؤسس إلى منهجيّة نقد وتقويم وتحليل وفهم وتطوير للفكر المعماري والعمراني وفق سياقاته التاريخية وأنساقه المعرفية ومساراته المجالية.

كلمات مفاتيح:

الإيحاءات ـ الصوفية ـ الرمزية ـ الحيّز ـ الجنسية ـ المدينة

(*) ـ أستاذ محاضر في التعمير والتهيئة بالمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير سيدي بوسعيد - تونس.

مقدمة

تُعَدُّ مسألة الحيز والمدينة، بمساراتها التكوينيّة ـ المجالية والفكريّة ـ الفلسفيّة، في عرف الباحثين من القضايا العلمية والمعرفية العويصة التي يصعب معالجتها والتطرق إلى إشكالياتها لتشعب مصادرها ومرجعياتها، واختلاف نشأتها وغايتها، حتى أنه من الصعب ـ في واقعنا الراهن ـ التعامل معها أو معالجتها وفق مقاربة منهجية علمية سليمة ومحايدة، تخدم الإشكالية المعمارية المركزية للحيز والمدينة وتتفاعل معها في تكونها وتحولها المجالي تفاعلا نقديا علميا بعيدا عن المكبلات الفلسفية المغرضة أو المسلمات الأيديولوجية العقيمة أو الإيحاءات الصوفية[1] والرمزية الجنسية[2] الجوفاء.

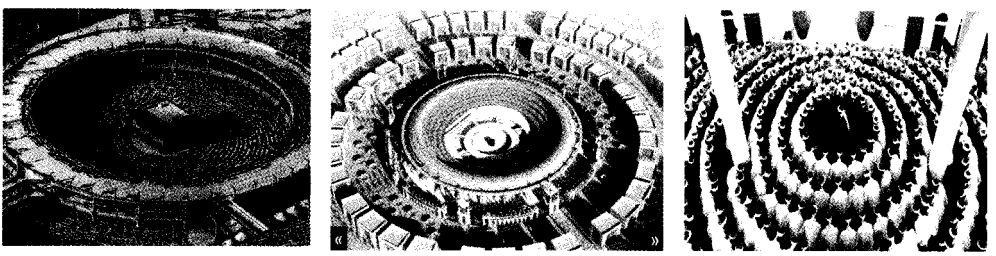

مشروع تهيئة الحرم المكي

شكل1 - تأثر الفكر والشكل المعماري بالإيحاءات الصوفية

ذلك لأن قضية الحيز والمدينة تتنزّل في موقع القلب من قضايا التدافع الإنساني الشامل في تحاوره وتصادمه، ببعديه الغريزي الذي تحكمه سنن الطبيعة والكون، حيث الصراع من أجل البقاء، والحضاري الذي يحكمه الوعي

(1) ـ لقد حاول المشاركون في تهيئة الحرم المكي أن يؤسسوا أفكارهم المعمارية حول حركة الطواف حول الكعبة في تأثر واضح بالحركة الدائرية الصوفية، باعتبار أن هذه الحركة الدائرية في المنطق الصوفي هي حركة تعبدية وذكر يسمو بها المريد بمعية الشيخ. بينما الطواف حول الكعبة هو عمل تعبدي توقيفي لا دخل للإنسان فيه. (انظر: ابن عربي (محي الدين): **إنشاء الدوائر**، مطبعة بريل، ليدن، ط1917،1، ص ص 23 - 24 - 25.

(2) ـ يشير عبد الصّمد الديالمي في هذا السياق إلى أنّ مقاربة الجنس والمعمار يمكن اعتبارها هامًا معرفيًا يسعى إلى بناء موضوع نظريّ موحّد «**يتحتّم تحويل الجنس والمعمار من مواضيع إمبريقيّة مشتّتة إلى موضوع موحّد، مبنيّ، الموضوع المعماري – الجنسي**». (انظر: الديالمي(عبد الصمد): **المدينة الإسلامية والاصولية والإرهاب – مقاربة جنسية**، دار الساقي و رابطة العقلانيين العرب، بيروت، ط1، 2008، ص17).

والقصد، ويؤسّس لعلاقات من الهيمنة الدائمة والتبعية الشاملة، حيث لا رفض فيها ولا صدام بل انقياد وانصهار. إذ يتحوّل فيها الغالب والمغلوب من الرفض والممانعة إلى القبول والرضي، بقطع النظر عن الصحة من الخطأ والصواب من عدمه، ومن التصادم والتحرّر إلى التبعية والانصهار، ومن التمايز الفكري إلى التوحد الإيديولوجي، لتصبح قضية الحيز والمدينة في هذا الصراع أداة فعالة وسلاحا فتاكا في يد المتغلب، يملي من خلاها قيمه ومفاهيمه، ويجعل منها مقياسا لغيرها من التجارب الأخرى. ويصبح المغلوب حضاريا في عداد المنسلخين عن ذاتهم ومقوماتهم متلبد الفكر مرتبك المفاهيم والقيم تحت وطأة المناهج الوافدة والمفاهيم المستحدثة.

في هذا الإطار يصبح فهم ونقد المسار الشكلي والنظري للحيز وللمدينة رهنا لإملاءات المفاهيم والقيم والمناهج والأنماط المعمارية والعمرانية الوافدة، حيث يصعب على الباحث المختص، فضلا عن غيره، الوصول إلى معرفة كنه الأشياء إلا بما تسمح له به الدائرة العلمية والمعرفية للمنظومة المعمارية والعمرانية الوافدة من إعادة تعريف المعرّف، وتحييد للأصل وتأكيد للفرع، وإهمال للكل وإبرازا لجزئي، وتشويه للحقائق العلمية والتاريخية باسم الحياد العلمي والسياق التاريخي والحضاري، في محاولة لإفراغ المفاهيم المتجذّرة من محتوياتها بل التقليل من أهميتها وإبعادها كليا من سياق البحث، بحسب ما تمليه ازدواجية المعايير في النقد والتحليل باسم الضبط والصرامة. أو بما يمليه هوى المغلوب من رفض لكل ما هو وافد، والتمسك بأشباح الماضي بلا حجة ولا دليل، أو بما تفرضه ضبابية المرجعيات وإسقاط المفاهيم والمناهج عند الباحث والناقد سواء بسواء. ليصبح بذلك فهم وتقييم الإنتاج المعماري والعمراني في غياب الضوابط العلمية والحقائق المعرفية رهنا لهوى الناقد والمحلل، بين مغال ومخل في الاستباحة والمدح بلا دليل.

I ـ إشكالية الحيّز في العمارة العربية الإسلامية

لقد ذهب البعض إلى أن النقد العلمي الهادف لهذه المسألة، يستوجب المعرفة بالأشكال والأنماط المعمارية والعمرانية المكونة لهذه المدينة أو لتلك

العمارة فحسب، فيما ذهب البعض الآخر إلى أنّ الحفر في الذاكرة طلبا لتأصيل الأشكال المعمارية والأنماط العمرانية هو المنهاج الصحيح لتقييم ونقد أي عمل معماري وعمراني، فيما ذهب طرف ثالثا إلى أنّ إرجاع المسألة إلى الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المؤسسة لها هو الطريق السوي والأسلم لدراسة ظاهرة الحيز والمدينة ونقدها وتصنيفها [3] وعلى أهمية كلّ هذه الاعتبارات في فهم ونقد مسألة الحيز والمدينة وجزئياتها وقضاياها وإشكالياتها، فإنّ القراءة الواعية لهذه المسألة تحتاج إلى المزيد من التدقيق والتحقيق في ظل الانزلاقات الفكرية المحلية - التي عرفتها كل الحضارات الإنسانية وبالأخص الحضارة العربية الإسلامية - من موقع التمايز الحضاري إلى موقع الانصهار في دائرة الحضارة الغربية-الكونية، في لحظة تاريخية فارقة اختلط فيها الحابل بالنابل، حيث تماه الأصلي بالوافد، والمادي بالرمزي، واليقيني بالوهمي وحتى الخطأ بالصواب.

> **في هذا الإطار الشامل من التدافع الحضاري، أصبح تتبع ثنائي الحيز والمدينة في إقباله وإدباره وتشعبه ليس بالأمر الهين**

في هذا السياق الشامل من التدافع الحضاري، أصبح تتبع ثنائي الحيز والمدينة في إقباله وإدباره وتشعبه ليس بالأمر الهين، رغم الجهد في التفكير والتحليل والفهم والتعليل والتفسير لمختلف ظواهره العلمية ومصادره المعرفية وإشكالاته الفكرية، لارتباك ملابساته وغياب المرجع والدليل عليه، وضرورة الحفر في كل الاتجاهات المعرفية والواقعية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية، بين دفّات الكتب وثنايا المخطوطات وفي أزقة المدن وطرقاتها وفي تفاصيلها المعمارية والعمرانية، للوقوف على أغوار هذا الثنائي وأبعاده.

وعلى نفس الوتيرة، وبقدر الارتباك الكلي الذي تعاني منه هذه المسألة، بقدر العجز الذي يعاني منه الباحث نفسه في هذا المجال، إما بلهثه وراء سراب خلّب وطفرات فكرية وافدة سرعان ما تتهاوى أمام البراهين العلمية القويّة والأدلة المنطقيّة الدامغة، وإما بانزوائه داخل ما تسمح به المناهج

(3) ـ السيد (وليد أحمد): «نحو أطروحة نظرية لإعادة قراءة العمارة/ المدينة العربية الإسلامية»، ضمن مجلة **لونارد**، العدد الرابع، السنة الأولى ـ يوليو 2011، ص 100 وما بعدها.

العلمية الوافدة تحت غطاء العولمة المفروضة التي تستبطن مسارا معرفيا وعلميا خطي، أحادي الاتجاه، يرفض بطبيعته معالجة هذه القضايا في عمقها الحضاري وخصوصيتها المعرفية، بعيدا عن الإطار العلمي والمعرفي الذي حدّده وتعارف عليه ـ بحكم العادة لا بحكم الضرورة ـ الباحثون المعاصرون، في تجاوز واضح للأبعاد الشاملة لمسألة الحيز والمدينة الضاربة في العمق الفكري والمعرفي الإنساني، بخلفياتها ومرتكزاتها المقيدة بالضغوط الواقعية الموروثة، والمكتسبة والمتفاعلة مع محيطها الاجتماعي المتشعب.

في خضمّ هذا الواقع، حيث اختلط الغث بالسمين والصواب بالخطأ واليقين بالشك، والذاتي بالموضوعيّ، أصبح الحديث عن تجربة معمارية وعمرانية متميّزة في مراجعها، مستقّلة في قيمها وأهدافها بعيدا عن هذا المسار المكبل لكل إبداع والرافض لكل منظومة ومنهاج يخالفه، هو بمثابة الرجم بالغيب والترف في البحث العلميّ الذي لا طائل من وراءه، بل إنه إسراف في الجهد وفي الوقت. لتتحوّل هذه المسألة برمّتها من حيث عمقها التاريخي والحضاري - وفي أحسن حالاتها - إلى مجرد إرث وفلكلور وجب التخلص منه ولو بعد حين. وأصبح الباحث بذلك في موقع الريبة، يغرد في سرب غير سربه. وفي مثل هذا المقام تحول المبنى التاريخي «للمقهى العالية» بسيدي بوسعيد إلى أيقونة فولكلورية، ليس فقط للمدينة المذكورة ولكنها للبلاد التونسية عموما، على غرار «برج إيفل» بباريس أو تمثال الحرية بالولايات المتّحدة الأمريكية.

المقهى العالية بسيدي بوسعيد تمثال الحرية بنيويورك برج إيفل بباريس

شكل 2 - العمارة كأيقونة وفلكلور

لقد تحوّلت هذه المسألة من موقع الريادة الحضارية إلى قضية ثانويّة،

وأصبح الاهتمام بها علميّا ومعرفيا من قبيل الترف الفكريّ الذي لا طائل من ورائه. واختزل أمرها كله فيما أنتجته المدارس المعمارية والعمرانية الغربية من نظريات وإشكاليات، وفيما ردده أنصار هذه المدارس من رجع للصدى الفكري والميداني لهذه النظريات مع إسقاط لمناهج ولمفاهيم هذه المدارس الغربية المنشأ والمحتوى، باسم المناهج العلمية العقلانية والصحيحة والمفاهيم المستنيرة، المرحب بها وبكل من إتّبع مناهجها، والمأخوذ عنها وبصرامة كل من خالفها، باعتبارها المقياس الوحيد والمرجع العلي في هذه المسألة. ليصبح بذلك الاهتمام بمسألة الحيز والمدينة، فيما هو مخالف لهذه المناهج والمفاهيم والمرجعيات العلمية الرسمية ذات العلاقة بهذه المدارس الغربية، من قبيل المجازفة العلمية الشاذة والخارجة عن النسق المعرفي والعقلاني والسقوط في دائرة الابتذال!

> **"خضع ثنائي الحيز والمدينة إلى منهج تحليلي جنسي مشحونا إيديولوجيا وعقائديا لا يسنده في ذلك دليل علمي ولا برهان مادي"**

ونتيجة لذلك تاهت مسألة الحيز والمدينة عامة والعربية الإسلامية منها بصفة خاصة بين الباحثين والنقاد المستشرقين منهم والمتغربين سواء بسواء، وفي ثنايا الإنتاج المعرفي الغربي الوافد- بين تأملات صوفية وجمالية فلسفية ورمزية جنسية مجحفة أو تصورات وظيفية وبنيوية متكلسة أو تحليلات تفكيكية متجاوزة لكل القيم والمفاهيم - فلا أرض قطعت ولا ظهر أبقت. وذلك في لحظة تاريخية فارقة تتشوف فيها الحضارات المحلية وخاصة منها الحضارة العربية الإسلامية المنتكسة إلى ومضة حقيقية تخرجها من التماهي الحضاري الكوني- الغربي الضيق الذي ارتكست فيه والذي أفقدها قوامها وكبل حركتها الإبداعية، إلى سعة الاختلاف والإثراء المتبادل. وفي إطار هذا التماهي الفكري خضع ثنائي الحيز والمدينة إلى منهج تحليلي جنسي مشحونا إيديولوجيا وعقائديا لا يسنده في ذلك دليل علمي ولا برهان مادي، على مستوى الفضاء والشكل، وحتى على مستوى النسيج المعماري والعمراني.

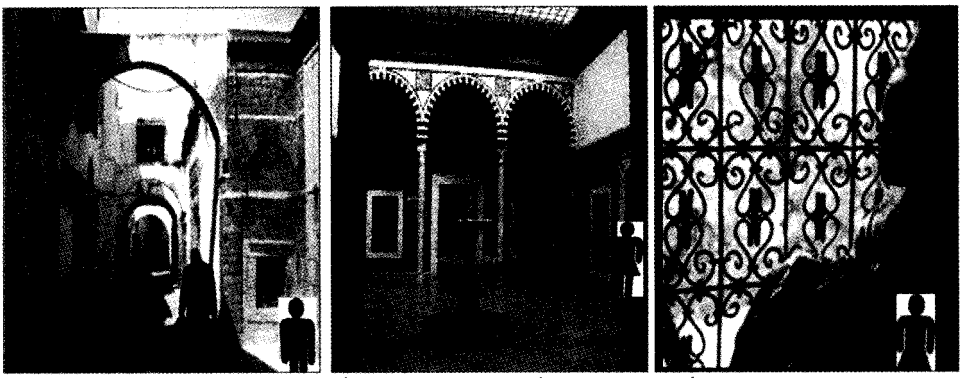

المخدع: فضاء خاص بالمرأة وسط الدار أو ساحتها فضاء للمرأة الشارع العام هو فضاء رجالي

شكل 3 - التحليل الجنسي للعمارة الإسلامية[4] بحسب موقع ووظيفة الحيز

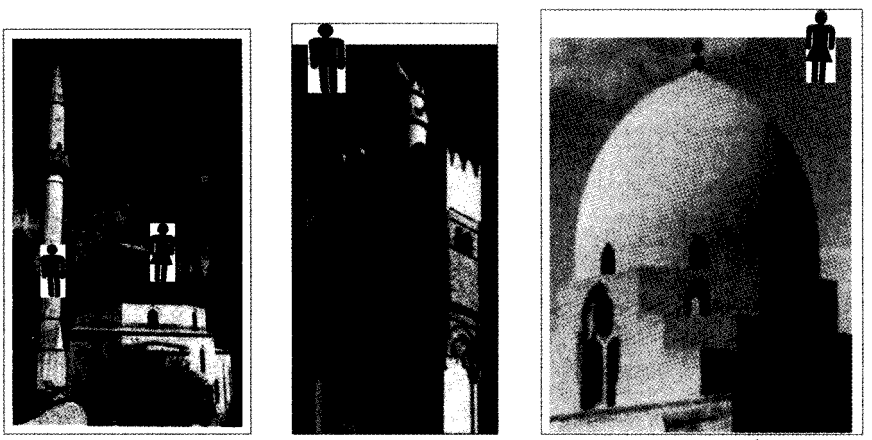

القبة: شكل أنثوي لنعومتها وانسيابها الصومعة: شكل رجالي لانتصابها الجامع مقسم في مفرداته بين أنثوي وذكوري

شكل 4 - التحليل الجنسي للعمارة الإسلامية[5] بحسب الشكل والمفردات المعمارية

(4) ـ لقد بالغ بعض المستشرقين ومن تبعهم في مفاهيمهم ومناهجهم في محاولاتهم تحليل العمارة الإسلامية تحليلا جنسيا بأن قسموا الفضاءات الداخلية والخارجية إلى فضاءات خاصة بالنساء وأخرى بالرجال، في إيحاء منهم إلى المجتمع الرجالي العربي الإسلامي الذي كبل المرأة ومنعها حريتها. ولئن كان بعض من هذا التقسيم صحيحا من حيث المقاربة الهندسية التقنية، فإنه غير صائب من حيث التفسير بربط العمارة بالإيحاءات بقهر المرأة ومحاولة دفعها للتخلي عن فضاءاتها الحميمية. كما أن هذا التقسيم النمطي الذي يمليه منطق الإسقاط المفاهيمي والمنهجي الغربي لا يمنع المرأة من استعمالها للفضاء العام ومشاركة الرجل في التجارة وحتى في العلم والتعلم، ومشاركة الرجل فضاءاتها الحميمية كذلك فضلا عن الأبناء والضيوف. (انظر: انظر : مجموعة مؤلفين: **إشكالية التحيز في الفن والعمارة: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**، دار السلام، القاهرة، ط1، 2008، ص -11 45).

(5) ـ الشكل المعماري ومفرداته أصبح بدوره مقسما بين مؤنث ومذكر. وهذا ما لا يستقيم في المنظومة المعمارية والعمرانية العربية والإسلامية التي لم تشذ بدورها عن هذا التصنيف الجنسي للفضاء. (انظر: لعيبي (شاكر): **العمارة الذكورية**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 2007، 213 صفحة).

شكل 5 - التحليل الجنسي للمدينة العهربية و الإسلامية بحسب النسيج المعماري والعمراني

II ـ الدائرة الافتراضية لإنتاج الحيز والمدينة

إنّ الوعي بمسألة الحيز والمدينة وفهمها ونقدها يستدعي الوعي بالإطار المعرفي والعلمي الذي أسس لها والسياق التاريخي-الحضاري الذي احتضنها، نشأة وتطورا، والملابسات الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل غاية وجودها؛ وتفكيكها من حيث مكوناتها، وتحليلها من حيث فكرها وتركيبتها ومرجعيتها بعيدا عن كل مدح يفتقد إلى الدليل أو تجريح يجانب الصواب.

وعلى هذا الأساس فإنّ فهم هذه المسألة ومعالجتها وتصنيفها ووضعها في الموضع المناسب لها يستوجب بالضرورة تفكيك مرتكزاتها الأساسية الموروثة منها والمكتسبة، والتي يمكن تصنيفها إجمالا إلى ثلاثة مرتكزات أساسية[6]:

ـ مرتكزات فكرية باعتبار البعد الحضاري والثقافي لهذه المسألة، المشحونة فلسفيّا وإيديولوجيا ودينيّا.

ـ مرتكزات اجتماعية باعتبار وظيفة المدينة ومكوناتها المجالية كمؤسسة

(6) ـ السبيعي (عبيد): **نحو تأصيل العمارة الإسلامية**، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير، تونس، 1982، ص 3.

وراجع أيضا: السبيعي (عبيد): **الحيز والمدينة وبناء المنظومة الفكرية المعمارية والعمرانية العربية الإسلامية**، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والعمرانية ، تونس، 2007/ 2008، ص ص40 - 102.Leg M'HALA (Moncef) : « médina : un art de bâtir » in *ouvrage collectif : les compétences des citadins dans le monde arabe, penser , faire et transformer la ville* / sous la direction de Isabelle Berry-Chikaoui et Agnés Deboulet, Karthala, IRMC, Paris- Tunis, 2000, pp. 41-50.

اجتماعيـة مركبـة الأبعـاد والتكويـن ومتشـعبة التفاعـلات.

ـ مرتكـزات واقعيـة باعتبـار البعـد التكوينـيّ ـ المجـاليّ للمدينـة، وعناصرهـا الماديـة المحسوسـة التـي تتفاعـل باسـتمرار مـع محيطهـا الطبيعـي والاجتماعـي، وتتطـور بحسـب مـا ورثتـه هـذه المدينـة مـن رصيـد تجريبـي ومعـرفي متواصـل.

إنّ هـذه المرتكـزات يـراد منهـا اسـتهداف ثنـائي الحيـز والمدينـة للفهـم والتحليـل والتصنيـف والنقـد بحسـب موضعـه الجغـرافي والتاريخـي والحضـاري، وخضوعـه إلى أبعـاد واقعيـة وسـياقات تاريخيـة وإرث معـماري وعمـراني مؤسـس، وعلاقـات اجتماعيـة متشـعبة، ومسـتند فكـري وفلسـفي ـ دينـي وإيديولوجـي يعكـس في مجملـه نسـقا علميـا ومعرفيـا متكامـلا ومتميّـزا في أصولـه ومصـادره وأهدافه، وسـياقا تاريخيـا متواصـلا، ومسـارا مجاليـا طبـع هـذا الثنـائي في تكونـه وتحولـه بالتواصـل والتجانـس، فكـرا وتصـورا وإنجـازا عـلى امتـداده الجغـرافي وعمقـه التاريخـي، مشـكّلا بذلـك أنموذجـا افتراضيـا قـادرا عـلى تمثّـل جـلّ إشـكاليات الحيـز والمدينـة والتأثـير في مجريـات تطـور هـذا الثنـائي.

وتهـدف هـذه المقاربـة المنهجيـة في معالجتهـا لمسـألة الحيـز والمدينـة في بعدهـا الإنسـاني، إلى تحويـل قيـم هـذه المسـألة ومفاهيمهـا إلى مـؤشرات محسوسـة قابلـة للقيـاس وخاضعـة للنقـد والتحليـل انطلاقـا مـن أبعادهـا الواقعيـة والاجتماعيّـة والفكريـة بمـا تمثلـه لهـا مـن مرجعيّـة شـاملة. كـما تعـد هـذه المقاربـة إضافـة علميّـة هامّـة، تسـمح بتفكيـك هـذا الثنـائي وفهـم طبيعتـه والغـوص في أبعـاده العلميـة والمعرفيـة. وتسـمح تبعـا لذلـك بالتحـرر مـن المواقـف الجاهـزة والأفـكار المسـبقة والمفاهيـم المسـقَطة، لتؤسـس إلى منهجيّـة نقـد وتقويـم وتحليـل وفهـم وتطويـر للفكـر المعـماري والعمـراني وفـق سـياقاته التاريخيـة وأنسـاقه المعرفيـة ومسـاراته المجاليـة.

وتتبلـور هـذه الدائـرة الافتراضيـة لثنـائي الحيـز والمدينـة في معادلـة شـبه رياضيـة ذات ثلاثـة محـاور متعامـدة تشـكل أبعـادا افتراضيـة تـؤشر إلى مـدى الحضـور الفعلي والتقلـص في المرتكـزات الفكريـة والاجتماعيـة والواقعيـة في إنشـاء كتلـة افتراضيـة تمثـل النتـاج المعـماري والعمـراني المحتمـل وفـق هـذه الأبعـاد. وبقـدر مـا تكـون

هـذه الأبعـاد في حضورهـا وتقلصهـا ممثّلـة للقيـم الحضاريـة والثقافيـة والاجتماعيـة ومتمسّـكة بالواقـع مـن الناحيـة المعرفيـة والناحيـة الإنشـائية بقـد مـا تكـون هـذه الكتلـة في تواصـل فكـري مـع المجتمـع وملبيـة لوظائفـه وحاجاتـه وفي تناغـم مـع واقعـه وإمكانياتـه الماديـة، وكذلـك العكـس بالعكـس.

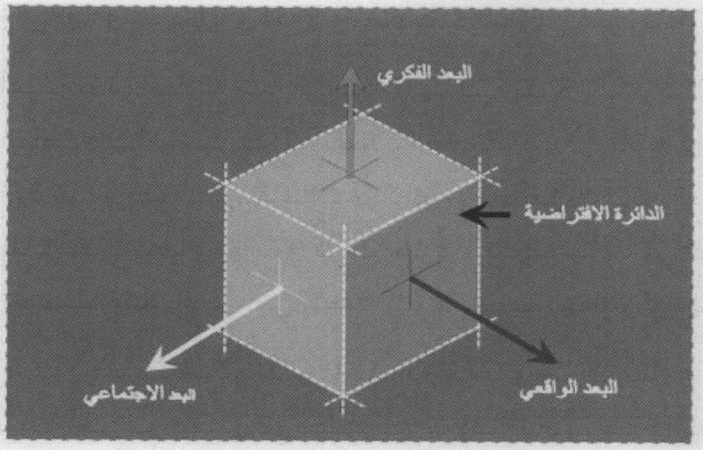

شكل 6 - الدائرة الافتراضية لإنتاج الحيز والمدينة

إن هـذا التصنيـف الإجـرائي الـذي تفرضـه منهجيـة التعامـل مـع هـذا الثنـائي في بعديـه المجـالي ـ التكوينـي والفكري-المفاهيمـي، لا يخفـي وراءه بالـضرورة تصنيـف ريـاضي ـ هنـدسي بحـت، ولا تصنيـف حـصري ونهـائي ينـزع نحـو الكـمال، بـل هـو مجـال واسـع وثـري للباحثـين في هـذا المجـال، يسـمح لهـم في إطـار التواصـل مـع هـذه المنهجيـة في بعدهـا الإجـرائي والمعـرفي أن يسـوقوا لأنفسـهم مـا يرونـه مناسـبا مـن الأبعـاد والمـؤشرات التـي تخـدم أغراضهـم العلميـة بحسـب اختصاصاتهـم وأهدافهـم.

ولـئن كان هـذا التقسـيم تقتـضي الـضرورة العلميـة، وتفرضـه طبيعـة هـذه المقاربة لدراسـة تطـوّر ثـنائي الحيـز والمدينـة، فإنّـه لا يعنـي بالـضرورة وجـود حواجـز صـمّاء بـين هـذه المرتكـزات، بـل إن التفاعـل والاندمـاج هـو الأصـل في ذلـك، لأن المرتكـزات الاجتماعيـة هـي جـزء مـن الواقـع تتأثّـر بـه وتؤثّـر فيـه، والمرتكـزات الفكريـة آخـذة بطـرفيّ الواقـع والمجتمـع، نشـأة وتطـورا. والمرتكـزات الواقعيـة بدورهـا متداخلـة مـع

الوظائف الاجتماعية والمرتكزات الفكرية، ولا يخلو أي نتاج معماري وعمراني من هذه المركزات الثلاثة، حضورا وتقلصا، في تفاعلاتها وتكاملها، مشكلة بذلك معادلة شبه رياضية وهندسية لدائرة إنتاجه، ومقاسا ومرجعا لتحليله وفهمه عبر كل الحضارات، وذلك بحسب درجة حضور أو غياب هذه المرتكزات، ودرجة أصالتها أو انبتاتها، ومساهمتها في تكوّن وتحوّل هذا الثنائي.

وعلى أهمية هذه المعادلة شبه الرياضية والهندسية لفهم إشكاليات الحيز والمدينة عموما، فإنّها ليست معادلة تقعيدية صارمة، لعدم إمكانية تجريد هذه الدائرة كليا وإخضاعها في تفاعلات مرتكزاتها إلى المنطق الرياضي الصارم. كما أنّ نقطة التحوّل، سلبا وإيجابا، في كل من هذه المرتكزات ليست هي نفسها ولا يمكن تحديدها هندسيا، بل هي منطقة كاملة متدرجة الغموض والوضوح.

ثمّ إنّ الجزم بالغياب الكلي لهذه المرتكزات أو بحضورها اللانهائي في بناء الحيز والمدينة أمر غير ممكن، وفي حالة حدوث ذلك تنعدم هذه العملية برمتها. إضافة إلى ذلك فإنّ علاقة التكامل والتفاعل بين هذه المرتكزات تجعل من هذه المعادلة، عبر مختلف العلاقات التي تربط عناصرها، نوعا من «المماثلة» (Modélisation) لتقريب الفهم أكثر من كونها معادلة رياضيّة. ويمكن بناء عليه تضيف العلاقات الثنائية التي تحكم مختلف التفاعلات بين عناصر هذه المعادلة والتي تحاكي بناء الدائرة الافتراضية لإنتاج الحيز والمدينة إلى ثلاثة أصناف:

- علاقة جدليّة، تربط ثنائي الحيز والمدينة بالمجتمع، فوجود أحدهما وجودا فعليا لا يكون إلا بوجود الآخر. وغيابه أو انزلاقه نحو مسار آخر سيقود حتما إلى خلل نوعي في بناء هذه الدائرة.

- علاقة تبادل وإثراء، تربط بين هذا الثنائي وواقعه، بحيث يستمد ثنائي الحيز والمدينة بعض من خصائصه من الواقع، ليتحول تدريجيا إلى جزء من الواقع نفسه، فيما يستمد الواقع بعض من مقوماته من هذا الثنائيّ كأرضية ثابتة له.

- علاقة اندماج واتحاد بين الفكرة وثنائيّ الحيز والمدينة، لتصبح الفكرة

والحيز ثم المدينة بالتبعية وجهين لكيان واحد.

لتكون ثلاثتها كتلة واحدة متماسكة، وفي اندماج كلي لا يمكن فصل بعضها عن البعض. وتصبح دائرة الإنتاج الفعلي لثنائي الحيز والمدينة الممثّلة لهذه الكتلة رهينة لمقدار الحضور الفعلي والنوعي لهذه العناصر أو لعدمها[7]. كما هو مبين في الشكل البياني السّابق رقم ـ 6 التالي:

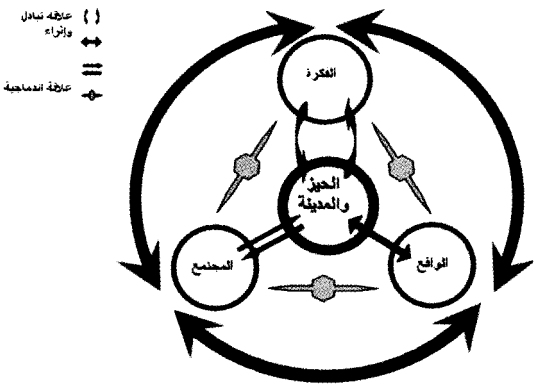

شكل 5 – علاقات التفاعل بين الحيز والمدينة والفكرة والمجتمع

شكل 7 - التفاعل بين مرتكزات الدائرة الافتراضية لإنتاج الحيز والمدينة

وبقدر أهمية هذه المقاربة المنهجية وضرورتها في معالجة هذه الثنائيات وإخراجها من بوتقة التبعية الفكرية التي هدّدت ولا تزال كلّ القيم والمفاهيم المعمارية والعمرانية الإنسانية، ونسفت خصوصياتها المجالية المحلية الموروثة منها والمكتسبة ومرجعياتها الفكرية، لاعتبارات تاريخية وإيديولوجية واقتصادية مهيمنة، فإنها أكثر تأكيدا بالنسبة إلى ثنائي الحيز والمدينة العربية والإسلامية، لإخراجه من هيمنة النسق العلمي والمعرفي الكلياني-العقلي-الغربي بسياقاته التاريخية ومساراته المجالية-الفلسفية، وإعادة قراءته وتحليله وفهمه ونقده وتقويمه عبر رصد تفاعلاته الحقيقية والافتراضية، باستقراء سلسلة من المؤشرات والمعادلات شبه الرياضية والمماثلات شبه الهندسية لمسار دائرة إنتاجه الافتراضية، بحسب درجة حضور هذه الأبعاد وتراجعها في عملية إنتاجه

(7) ـ السبيعي (عبيد): **نحو تأصيل العمارة الإسلامية**، مرجع سابق، ج1، ص.ص. 14 – 18.

المعـماري والعمـراني المركبـة والمتشـعبة أصـلا.

إنّ الحضـور النسـبي لهـذه المرتكـزات في تشـكل الدائـرة الافتراضيـة لإنتـاج الحيـز والمدينـة أو تراجعهـا يجعـل مـن هـذا الثنـائي عرضـة للخلـل والارتبـاك. فبقـدر الحضـور الفعـلي لهـذه المرتكـزات في موقعهـا الطبيعـي، تكـون هـذه الدائـرة متماسـكة ومتوازنـة ومعـبّرة عـن الانتـماء الحضـاري والتجـذّر المرجعـي والوضـوح المفاهيمـي والمنهجـي لهـذا الثنـائي وانصهـاره في موقعـه واسـتجابته لحاجيـات المجتمـع. وبقـدر مـا تكـون هـذه المرتكـزات مهمشـة أو مهتـزة المرجعيـة الفكريـة أو المجاليـة، أو خارجـة عـن سـياقها التاريخـي، تكـون هـذه الدائـرة عرضـة للتسـطح والخطيـة التـي تعـبّر عـن الارتبـاك في النتـاج المعـماري والعمـراني والتصـدع الفكـري والوظيفـي والانـزلاق المفاهيمـي والقّيمـي لهـذا الثنـائي، نحـو منظومـة معماريـة وعمرانيـة أخـرى ونسـق علمـي ومعـرفي مغايـر وسـياق تاريخـي وحضـاري مناقـض.

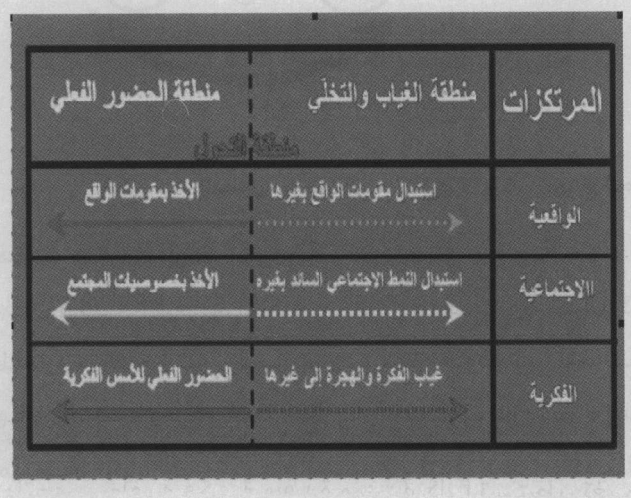

شكل 8 - الحضور والتراجع في المرتكزات الأساسية للحيز والمدينة

III ـ الخطيّة والتسطح في إنتاج الحيز والمدينة

تهـدف هـذه المقاربـة في التعامـل مـع المرتكـزات الفعليـة لدائـرة الإنتـاج الافتراضيـة لثنـائي الحيـز والمدينـة إلى البرهنـة وبأسـلوب علمـيّ شـبه رياضي-هنـدسي أن طبيعـة هـذه الدائـرة وبقائهـا هـو رهـن لدرجـة الحضـور الفعـلي والنوعـي لهـذه

المرتكزات أو لعدمها، ورهن تفاعلاتها مع بعضها البعض. وأن فتور أحدها أو غيابها كلّيا أو جزئيا، سيجعل من هذا الثنائي ظاهرة مسطحة (Plane)) تشكو من الانزلاق في الفكرة وعدم التأقلم مع الواقع والتناقض مع المجتمع. وفي حالة تقلص أكثر من مرتكز ستتحول هذه الدائرة إلى ظاهرة خطية وفوقية (linéaire et superficielle) لا ترتقي إلى مصاف العمارة المتكاملة المتناغمة مع محيطها، فضلا عن المدينة المتأصّلة في واقعها وفي المجتمع الذي أنتجها، وغير قادرة على تلبية أغراضه وحاجياته، فضلا عن كونها ستصبح بمعيّة ما يترتّب عليها من تصدّعات اجتماعية وضياع في الهوية، حملا ثقيلا على كاهل هذا المجتمع. وستنزلق هذه الدائرة في نهاية أمرها، لتؤول إلى ظاهرة معمارية وعمرانية منبتة، تحمل في طياتها وتفاصيلها خلفيّة فكريّة وثقافيّة مهتزّة، وفي تناقض مع محيطها الثقافيّ والاجتماعيّ، ومرجعا لكثير من الخلل في الهيكلية المعمارية والعمرانية للمدينة ووظائفها.

> **إن بقاء ثنائي الحيز والمدينة أن بقاءها هو رهن لدرجة الحضور الفعلي والنوعي لهذه المرتكزات أو لعدمها**

وفي حالة التصدّع الكلي لهذه المرتكزات بحسب هجرتها من حيث الفكرة إلى مرجعية فكرية مغايرة، وتناقضها مع المجتمع وحاجياته في عدم تناغمها وتطورها مع تطور المجتمع، وتخليها كليا على مقومات الواقع على المستوى الفني والمعرفي والإنشاء. سيكون ذلك بمثابة الموت لهذا الدائرة وانزلاقها الكلي إلى موقع جديد يعبّر عن مسار تاريخي وحضاري غير تاريخ المجتمع الذي يسكنها، وعن خلفية فكرية وافدة ومنبتة كليا تستبطن تغيير النمط التفكير الأصلي للمجتمع بوعي منه أو بغير وعي، وعن واقع متعال في تناقض كلي مع المناخ والانماط المعمارية والعمرانية ومواد البناء؛ مما يتسبب في إشكاليات متعددة لا تهدد هوية الحيز والمدينة فقط، ولكن تهدد الهوية الحضارية بأكملها.

IV ـ ظاهرة التسطح في الحيز والمدينة

وتعدّ هذه الظواهر جميعها نوعا من الانحراف الفعلي الكلي أو الجزئي عن المسار الطبيعي في تطور هذا الثنائي وتواصله مع مقوماته المعمارية والعمرانية الاصلية، تحت وطأة الغزو الفكري والانسلاخ الحضاري، ولو زعم البعض أن ذلك من قبيل التأثير والتأثر أو من قبيل التفاعل بين الأصلي والوافد أو بين المتجذّر والمنبت.

ولمزيد من التوضيح لهذا الخلل وانعكاساته على الإنسان ومحيطه الاجتماعي والاقتصادي وحتى العلمي والمعرفي ونقده نقدا علميا، نورد الأمثلة التالية من الظواهر الخطية والمسطّحة التي تتعرّض إليها الدائرة الافتراضية لهذا الثنائي في تطوّره وتحوّله، وذلك على سبيل التحليل المخبري أكثر منه تحليلا واقعيا، لارتباط هذه الأبعاد في الواقع وتفاعلها المتبادل والمتشعب، وصعوبة فصلها عن بعضها البعض. دون الالتجاء إلى عزلها مخبريا وتحليلها كظاهرة منعزلة، رغم وعينا التام بعلاقاتها المتشعبة والمتفرعة مع الظواهر الأخرى التي تشكل عماد الدائرة الافتراضية لبناء المنظومة المعرفية المعمارية-العمرانية.

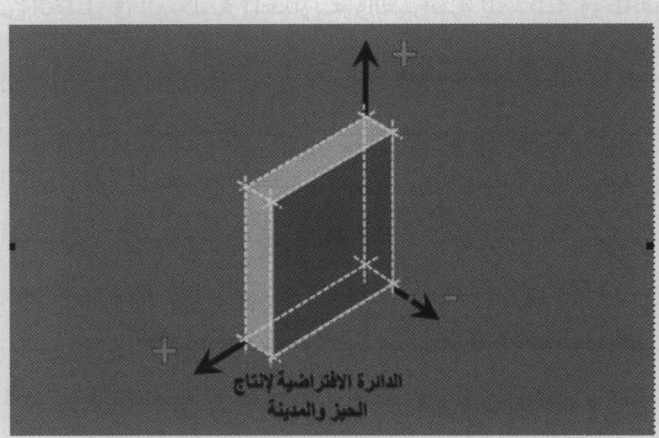

شكل 9 ـ ظاهرة التسطح في ثنائي الحيز والمدينة

الحالة الأولى: تراجع المرتكز الواقعي وتضخم المرتكزات الأخرى

ويمثل البعد الواقعي أو المرتكز الواقعي لثنائي الحيز والمدينة المحيط الشامل

الـذي يحتضـن هـذا الثنـائي بمكوناتـه المناخيـة والطبيعيـة والاقتصاديـة والعلميـة والفنيـة الموروثـة والمكتسـبة، كالأشـكال المعماريـة ومـواد البنـاء وتقنياتـه الموروثـة منهـا والمكتسـبة، ومـا تمثلـه هـذه المكونـات مـن ذاكـرة للمـكان وللتاريـخ ومـن امتـداد للطبيعـة والاسـتدامة.

> **إنّ تراجع البعد الفكري الأصيل في بناء الحيز والمدينة، قد يقود حتما إلى تشوهات كثيرة في حضور وغياب المرتكزات الأخرى**

إنّ التراجـع في هـذا المرتكـز يـدل عـلى عـدم التفاعـل بـين ثنـائي الحيـز والمدينـة مـع الواقـع ومكوناتـه الجغرافيـة أساسـا، واسـتيراد أنمـاط معماريـة أخـرى في تناقـض مـع متطلبـات الواقـع. ويـؤشر بالخصـوص عـلى:

- عدم اندماج المبنى في محيطه الجغرافي والمجالي المباشر.
- بروز ظاهرة الطابع المعماري والعمراني المستورد.
- الاستغناء عن الموروث المعماري والعمراني المحلي كعنصر من عناصر الواقع.
- استعمال مواد وتقنيات بناء جديدة في تناقض مع المحيط.

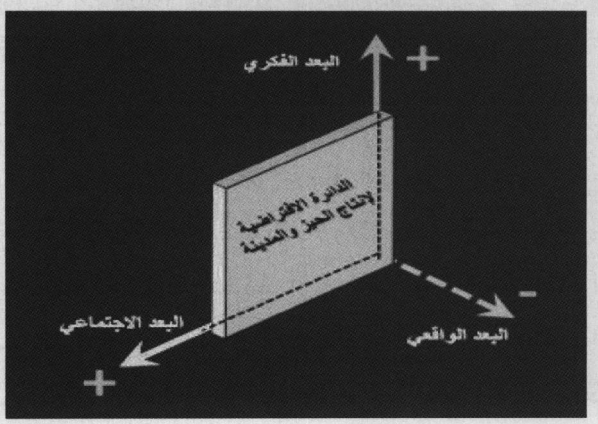

شكل 10 ـ تراجع المرتكز الواقعي وتضخم المرتكزات الأخرى

وبقطع النظر عن الغياب شبه الكلي للمرتكزات الأخرى في الأمثلة التالية التي سنستدل بها عن هذه الحالة ـ من تناقض مع المجتمع تناقضا كليا وانفصام فكري ومرجعي غير مسبوق ـ فإنه لا يخفى على كل ناقد بصير أن يدرك بكل يسر التناقض الكلي لهذه العمائر مع الواقع الحاضن لها في بعده المناخي الحار والرطب وبتضاريسه الصحراوية برمالها المتحرّكة على الدوام. وفي بعده الفني والتقني الذي يتجاوز بكثير الإمكانيات العلمية والمعرفية لأبناء المجتمع الذي وجد نفسه مجبرا على التفاعل مع المدينة وهذ الطرز المعمارية الباهظة الكلفة والصيانة وحتى الاستعمال اليومي. لتتحوّل هذه العمائر أمام الانفصام الحضاري الكلي والتبعية الفكرية والاجتماعية الشاملة ومنطق التسويق السياسي، إلى إشكالية مناخية كبرى، وإرهاقا اقتصاديا لا سابق له، وارتهانا كليّا للحضارة الغربية ـ الكونية.

الهندسة المعمارية في أبوظبي . الامارات

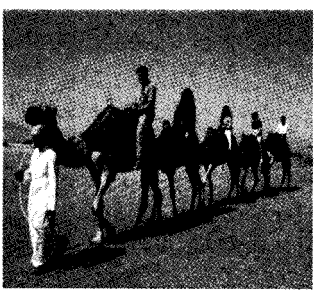

البيئة والمحيط في الإمارات

مبنى فندق حياة في الامارات

شكل 11 - التناقض الكلي والصريح بين الهندسة المعمارية والموقع

الحالة الثانية: تراجع المرتكز الاجتماعي وتضخم المرتكزات الأخرى

المجتمع هو الغاية من عملية البناء والتشييد بالدرجة الأولى، وهو الحاضن لثنائي الحيز والمدينة. فغياب المرتكز الاجتماعي في معادلة إنتاج الحيز والمدينة يؤدي حتما إلى التناقض الصارخ بين المتطلبات المعمارية والعمرانية للمجتمع والفضاءات المنجزة. وقد يؤدي هذا إلى أزمات اجتماعية وردة فعل عنيفة من نوع الجريمة أو تفكك العائلة أو الصراع المتواصل بين الجيران، وأخيرا وليس بآخر التفكك والانهيار الكلي للمجتمع. ويقود هذا التراجع إلى:

- ارتباك في المجتمع وانفصام في شخصيته.
- تضارب في اختياراته المعمارية والعمرانية.
- التناقض بين متطلبات المجتمع والحلول المعمارية المقترحة.
- فرض نماذج معمارية لا تلبي حاجيات المجتمع الذي أنتجت لفائدته.

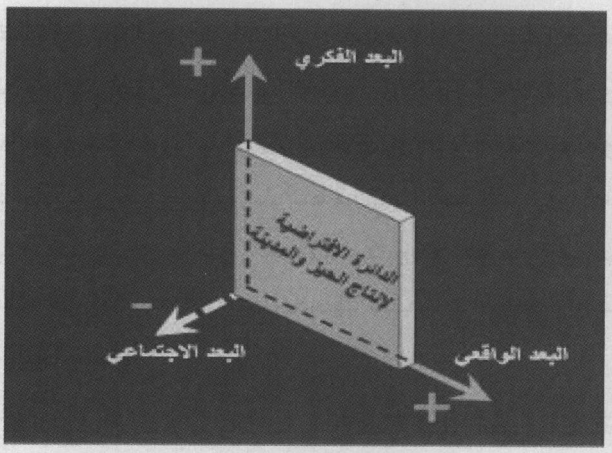

شكل 12 - تراجع المرتكز الاجتماعي وتضخم المرتكزات الأخرى

ومن الأمثلة الدالة على هذا التراجع وما يترتّب عنه من ارتباك في النسيج الاجتماعي ما نشاهده اليوم في كل المدن تقريبا من نسيج معماري كثيف ومرتفع، ليس فيه من الابعاد الاجتماعية إلا البعد الاقتصادي المقنع الذي سيتحوّل مباشرة إلى استهلاك في الطاقة، وتفكك في المجتمع والاسرة، وتدهور في المحيط والبيئة والمشهد الحضري، وانخرام في الأمن ورفاهية موهومة لا علاقة لها بالواقع المعاش... فضلا عن الشطط في كلفة المبنى ابتداء، وما ينجر عن ذلك من ديون وأقساط مالية مضاعفة أضعافا كثيرة.

شكل 13 ـ أمثلة من المساكن الاجتماعية بمدينة تونس

الحالة الثالثة: تراجع المرتكز الفكري وتضخم المرتكزات الأخرى

مما لا شك فيه أن البعد الفكري في بناء ثنائي الحيز والمدينة هو المنطلق والأرضية النظرية لكل حدث في هذا المجال. فغيابه الكلي أو تذبذبه يشكل حالة تعبر عن هجرة حضارية، وانزلاق للمنظومة المعمارية والعمرانية بأسرها، من موقع الثبات والتجذر الحضاري إلى موقع التبعية والانفصام.

وقد لا نغالي في زعمنا أن جل المدارس المعمارية والعمرانية اتّخذت من هذا المعطى دليلا ومرجعا على مشروعيتها الفكرية والفلسفية والدينية، وجعلت منه آلية للنقد والفهم على حساب المرتكزات الأخرى التي أصبحت ثانوية جدا في اختياراتها المعمارية والعمرانية بينها. كما تراجع البعد الفكري الأصيل في بناء الحيز والمدينة، قد يقود حتما إلى تشوهات كثيرة في حضور وغياب المرتكزات الأخرى. ولذلك فإن الارتدادات التي يحدثها تقلص هذا البعد أو غيابه الكلي سينجر عنه فيما ينجر:

1 ـ اهتزاز في المرجعية الفكرية والفلسفية والدينية لثنائي الحيز والمدينة.

2 ـ استيراد أنماط معمارية وعمرانية في تناقض مع الواقع والمجتمع الذي أنتجها.

3 ـ العبثية والضبابية والتلكؤ في الاختيارات المعمارية والعمرانية.

4 ـ الانزلاق الفعلي نحو نسق فكري ومفاهيمي معماري وعمراني آخر.

5 ـ الانخراط في التبعية الفكرية المعمارية والعمرانية والقطيعة مع الموروث منه.

6 ـ ظهور أنماط معمارية وعمرانية هجينة.

7 ـ تبعية فنية وتقنية في أسلوب البناء ومواد بنائه وارتهانا اقتصاديا واجتماعيا بالغير.

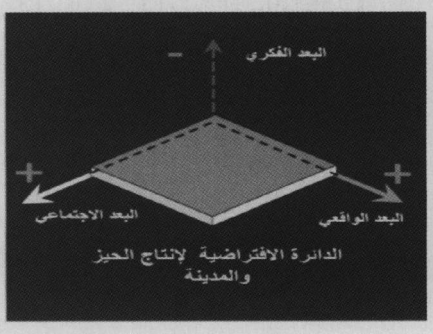

شكل 14 - تراجع المرتكز الفكري وتضخم المرتكزات الأخرى

ومن الأمثلة الدالة على تراجع المرتكز الفكري في بناء المنظومة المعمارية والعمرانية في المدينة العربية الاسلامية وهجرة هذا الثنائي نحو منظومات أخرى هو ما نراه واضحا اليوم من أنماط معمارية وعمرانية وافدة تحت وطأة الغزو الفكري الكلياني- الغربي-الكوني ذو المرجعية الفلسفية والأيديولوجية، على حساب الأنماط المحلية في العالم العربي الإسلامي ذوات المرجعية التشريعية - العقائدية. وما نراه من أساليب تقنية متقدمة تعضدها قوة اقتصاديه هائلة ومراكز بحوث متطورة لا قبل للعالم العربي والإسلامي بمجاراتها، وذلك تحت غطاء التطور واستراد التكنلوجيا المزعوم، وزهدا في التواصل مع الموروث وانخراطا في العولمة ولو على حساب الهوية الشاملة.

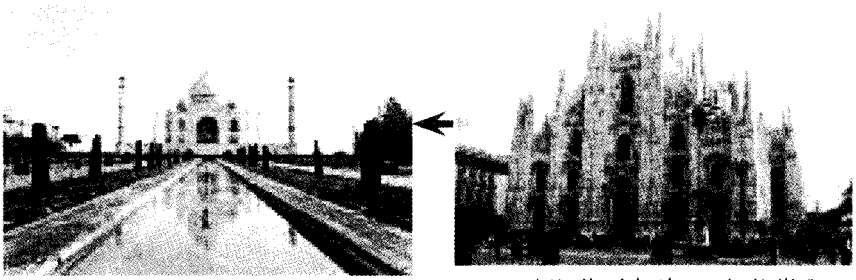

تمثال الصليب بسان باولو بالبرازيل

تمثال الساعة والهلال بالمسجد الحرام بمكة المكرمة

شكل 15 ـ التأثر بالبحث عن المنظور ـ الغربي ـ لهيمنة المعلم

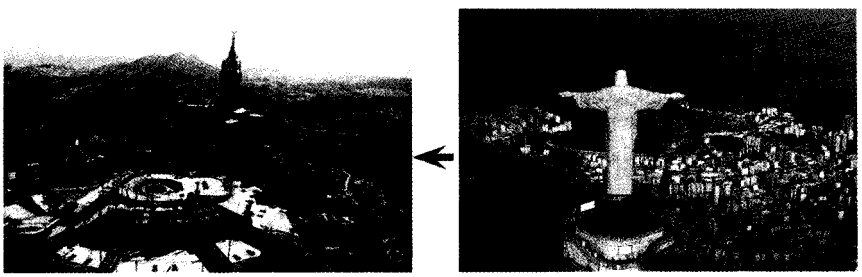

ضريح تاج محل بالهند

كاتدرائية مدينة ميلان بإيطاليا

شكل 16 ـ التعامل الفلسفي ـ الإيديولوجي مع المقدسات

باب سعدون اليوم

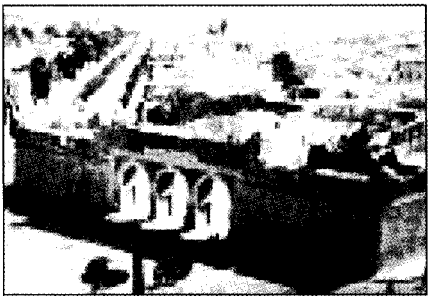

باب سعدون التاريخي

شكل 17 ـ موقع التراث: من الوظيفة إلى المعلم

باب سويقة اليوم

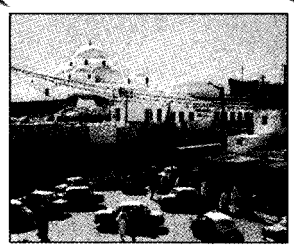

باب سويقة في الستينيات والسبعينيات

باب سويقة التاريخي (8)

شكل 18 ـ تغير في الوظيفة = تغير في الفكرة

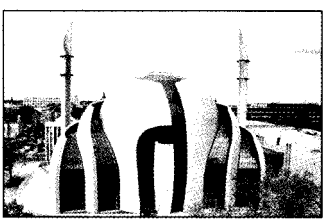

المسجد المركزي بكلونيا (11)

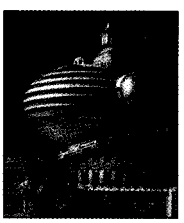

مسجد (10)

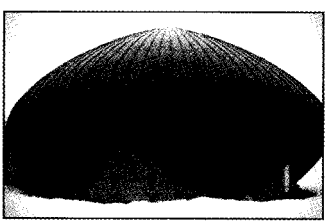

جامع في مدينة كوبنهاقن (9)

شكل 19 ـ تغير المرجعية التشريعية ـ العقدية في العمارة الإسلامية إلى المرجعية التفكيكية

(8)_ Voir : Google Image : Culture et patrimoine de Tunisie en images : collection Mohamed Hamdane. http://cultpatr.blogspot.com/ Visitée le 15/07/2018.

(9)_ Idem,

(10) ـ غير معروف المصدر

(11)_ La Mosquée Centrale de Cologne : (La construction de la plus belle et peut-être la plus grande mosquée d'Europe touche à sa fin. La Mosquée Centrale de Cologne (avec ses deux minarets de 55 mètres chacun) est une édifice gigantesque qui concilie modernité et authenticité dans une ville cosmopolite (1 million d'habitants), également le plus grand diocèse catholique d'Allemagne.
https://www.ajib.fr/mosquee-cologne-allemagne/ Visitée le 15/07/2018.

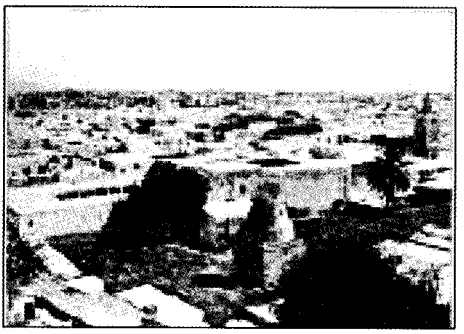

النسيج المعماري والعمراني العربي الإسلامي التشريعي ـ العقدي[12]

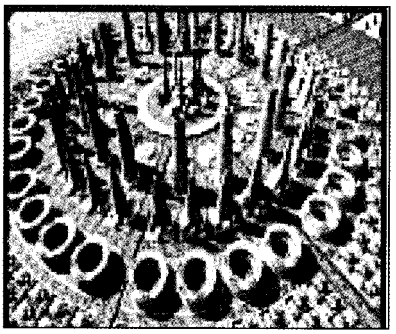

المدينة العربية الإسلامية التفكيكية[13]

شكل 20 ـ تغير المرجعية التشريعية-العقدية في المدينة الإسلامية إلى المرجعية الفلسفية ـ التفكيكية

V ـ الظاهرة الخطية في الحيز والمدينة

رغم الخطورة التي يشكّلها التراجع النسبي أو الكلي لأحد المرتكزات في ظاهرة التسطّح المعماري والعمراني، سواء منها الفكرية أو الاجتماعية أو الواقعية أمام بقية المرتكزات، فإن أثر ارتداد هذا التراجع على بناء منظومة معرفية معمارية وعمرانية متكاملة ومتواصلة مع ماضيها وحاضرها ومستقبلها يبقى محدودا. ويمكن تجاوزه وإصلاحه بالمقابل إذا ما تمت مقارنته بالأثر البالغ الذي تتركه الظاهرة الخطية لثنائي الحيز والمدينة على توازن هذه المنظومة بسبب تضاعف الخلل في مستوى هذه الظاهرة الذي يلامس بعدين من أبعاده. وهو خلل يقود مرحليا إلى الهجرة النهائية لثنائي الحيز والمدينة من موقعه الطبيعي، إلى موقع مغاير وانفصامه الكلي عن ذاته وانزلاقه نحو منظومة معمارية وعمرانية أخرى وافدة أكثر حضورا عزما.

ولعله من أشدّ الأمثلة وضوحا هو ما يشهده اليوم ثنائي الحيز والمدينة بل المنظومة المعمارية والعمرانية العربية الإسلامية بأسرها من انفصام في بعدها الفكري، وتناقض في عمقها الاجتماعي، وتدهور في بيئتها وبنيتها المادية لهو

(12) ـ مدينة تونس المركز التاريخي – صورة تاريخية

(13) ـ Nouvelle Ville de Boughezoul : d'après Dr. Loth BOUNATIRO de l'université de Blida (proposition présentée au 56e salon international des innovations technologiques de Bruxelles sous forme de maquette pour la nouvelle ville de Boughezoul.)

خير دليل على الانزلاق الفعلي لهذه المنظومة وخروجها عن مسارها الحضاري الطبيعي؛ لتلتحق بمسار الحضارة الغربية - الكونية لقوة عزم هذه الأخيرة.

ولمزيد من التوضيح لهذا الخلل الذي يشكّل تميّز ظاهرة التسطح المعماري والعمراني عامة والعربي الإسلامي منه بصفة خاصّة نقدّم بعض الأمثلة بحسب مستوى التدهور والتراجع المضاعف لمرتكزات هذه المنظومة. وذلك على سبيل التحليل المخبري كسابقاتها، لاستحالة فصل تأثير هذه المرتكزات بعضها عن بعض، دون اللجوء إلى عملية العزل المنهجي والضروري لهذه الأخيرة، واستهداف تأثيراتها المباشرة بالتحليل والنقد والفهم والتصنيف.

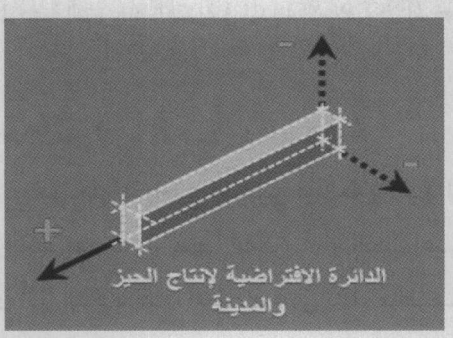

شكل 21 ــ الظاهرة الخطية في الحيز والمدينة

وبناء على ذلك يمكننا رصد ثلاث حالات من الانزلاق الثنائي الأبعاد، والتصدع الجزئي، والقبل الأخيرة للمنظومة المعمارية والعمرانية المحتملة، نسبة إلى مرجعيتها المفروضة، وعمقها التاريخي، ونسقها الحضاري، وارتباطها الضروري بمحيطها وبيئتها.

الحالة الأولى: التصدع في المرتكزات الواقعية والاجتماعية للحيز والمدينة

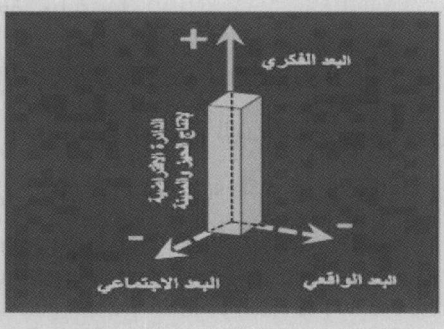

شكل 22 ــ تراجع المرتكز الواقعي والاجتماعي وتضخم المرتكز الفكري

وهي حالة مخبرية وظاهرة خطية لثنائي الحيز والمدينة، لا يمكن ملاحضتها إلا بعزلها عن المؤثرات الأخرى. وتبرز هذه الظاهرة حينما يتغير المجتمع جزئيا أو كليا من حيث هويته وقطيعته مع نفسه. بحكم التطور أو الغزو الفكري والثقافي. مع محافظته على اليسير من المتبقي من نمط حياته الموروثة وتشبثه بقيمه وعاداته وتقاليده، تحت وطأة الهجرة من الريف إلى المدينة، أو من المدينة التاريخية إلى الأحياء الموروثة عن الحقبة الإستعمارية.

موروث معماري فرنسي بمدينة ماطر

مدينة القيروان

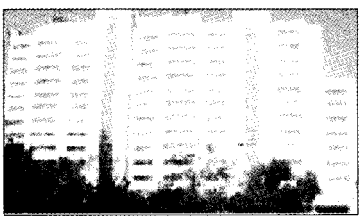

طراز معاصر عمودي وعالي الكثافة . مدينة توتس

إتجاه الهجرة نحو انماط مغايرة

تونس - نهج من المدينة التاريخية

طراز من الحقبة الاستعمارية . مدينة تونس

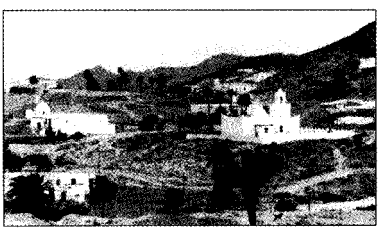

مشهد من الريف بالجنوب التونسي

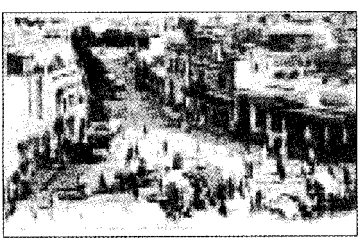

ساحة باب سويقة من الحقبة الاستعمارية . مدينة تونس

قرية الزريبة العليا

شكل 23 - الهجرة الداخلية وتصدع المرتكز الاجتماعي في بناء الحيز والمدينة

أو بسكناه بهجرته الكلية واندماجه ضمن مجتمع مغاير لمجتمعه الأصلي في الوظائف والحاجيات، كالجاليات المهاجرة طوعا وكرها والتي وجدت نفسها في مدن وأحياء أو مخيمات ظرفية ودائمة لا تمّت لها بصلة وفي قطيعة حضارية وواقعية مع ما تحمله من قيم وعادات وتقاليد وأفراح وأطراح.... كما هو الحال بالنسبة للجاليات العربية والإسلامية التي استوطنت أوروبا وأمريكا في أواخر القرن الماضي، وأصبحت تعيش حالة من التصدع والانفصام المركب، بين هوية أجتماعية مسلوبة أصابها شيء من التصدع، ومحيط معماري وعمراني يتناقض وحاجاتها ووظائفها الاجتماعية الأساسية، إلا ما توفّر منها من حماية ضد الحر والقر. مما دفعها إلى البحث عن هوية دينية مركبة بين موروث متمسكة به بحكم الانتماء الديني والحضاري وجديد مفروض بحكم الضرورة والواقع، وعن مشروعية فقهية-تشريعية تؤسس إلى نمط مغاير من الحياة تحت اسم فقه الأقليات، وعن هوية هجينة مزدوجة عربية-اسلامية أوروبية أو أمريكية تجمع بين الاضداد: (تونسي-هولندي أوجزائري-فرنسي....).

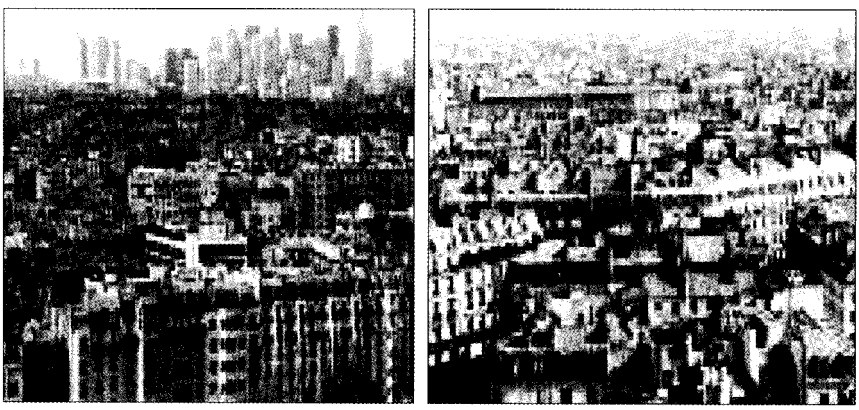

السكن الاجتماعي(H.L.M.) بضواحي باريس [14]

شكل 24 - الهجرة الخارجية: التصدع المركب للمرتكز الاجتماعي السكن الاجتماعي

(14) -A ce sujet Christian MEYZE écrit : *«L'amiante des immeubles H.L.M. (Habitations à Loyer Modéré) du 19ème arrondissement à Paris ; (Les sociétés HLM sont toutes confrontées au problème. Elles ne sont pas les seules. Mais bon nombre de HLM, à Paris comme ailleurs, ont été construits entre 1950 et 1975. Or à cette époque, on a utilisé l'amiante, matériau isolant et surtout ignifuge, absolument partout. Il n'y a pas une maison, pas un bâtiment de ces années-là qui n'en contiennent pas. Le problème alors, surgit dès que l'on fait des travaux. Car lors de travaux, l'amiante surgit, sous forme de très fines poussières qui s'infiltrent partout, et en premier lieu dans les bronches ! Pour protéger, isoler un chantier de désamiantage, il faut*

وكذلك الحال بالنسبة لمن استهوتهم البلدان العربية والإسلامية من الأثرياء من الغربيين والمستشرقين الذين سكنوا أحياءها التاريخية دون أن يتخلو عن قيمهم وتقاليدهم بل عملوا جاهدين، من موقع القوة والطرافة والترف، ومن موقع الغلبة والاستعلاء الحضاري على تغيير وظيفة هذه الأحياء وهيكليتها في تناقض صارخ مع وظيفتها الاصلية وذالك بإضافة مسابح فوق السطوح مثالا ومباشرة تحت الشمس بحثا عن المتعة والاسترخاء في حيز جعل أصلا لحماية المرأة في تواصلها مع جاراتها من النساء، والتمتع بالشمس والهواء بكامل الحرية، وفي استحياء وبعيدا عن أعين المتطفلين من الرجال.

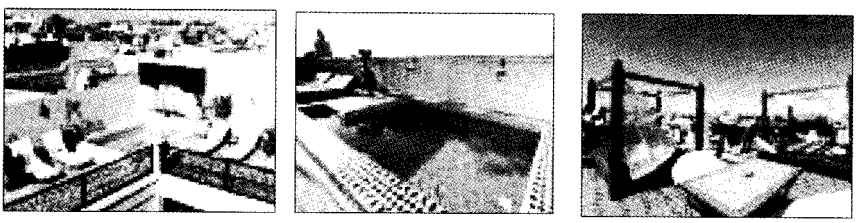

أمثلة من تغير وظيفة السطوح بمدينة مراكش (من فضاء الحريم إلى فضاء المتعة السياحية)

شكل 25 ـ تصدع في مستوى المرتكز الاجتماعي: تغير وظيفة الحيز بتغير المجتمع (المتساكنين)

أما بالنسبة لتصدع المرتكز الواقعي والذي لا يمكن فصله عما سبقه من التصدع الأجتماعي فهذا يمكن ملاحضته تقريبا حيث ما حللت من التناقض الصارخ بين الحلول المعمارية والعمرانية المنجزة ومحيطها وبيئتها ومجتمعها التي تتنزل فيه، مما دفع بذوي الاختصاص في إعادة النظر جملة وتفصيلا في هذه الحلول التي فرضت نفسها بحكم الضرورة الفنية والعملية والاستعلاء الحضاري. إذ المغلوب مولع بتليد الغالب.

donc prendre d'importantes précautions. Des précautions et dispositions qui font évidemment monter très haut les coûts du chantier. La tentation est alors forte, pour le propriétaire ou le bailleur social, celui qui finance le chantier, de ne rien dire pour pouvoir rester dans le cadre d'un chantier ordinaire. D'où l'inquiétude d'habitants qui découvrent en cours de chantier que leur immeuble est concerné et qu'ils sont directement confrontés aux risques de ce matériau extrêmement dangereux. Comme dans cette cité du 19ème arrondissement de Paris).

MEYZE (Christian) «A Paris, les sociétés de HLM face au défi du désamiantage» Publié le 09/10/2014 à 12:14 Mis à jour le 30/07/2015 à 09:43.

https://france3-regions.francetvinfo.fr,Visitée : 15/07/2018.

والبحث عن مفهوم جديد للاستدامة في الحيز والمدينة وحماية البيئة والمحيط لكثرة المخاطر التي انتجه التوجه المعماري والعمراني المعاصر الذي ضرب بكل المقومات الفنية والتقنية الموروثة والمتجانسة مع موقعها الطبيعي والاجتماعي والتاريخي-الحضاري عرض الحائط; فجنى كثيرا من الشوك عوضا عن العنب.

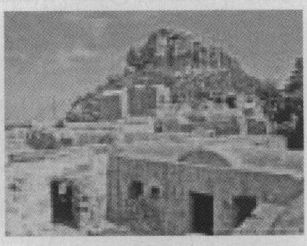

مبنة تكرونة التاريخية والإندماج مع الموقع

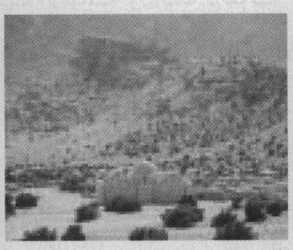

حسن فتحي وعمارة الفقراء احترام الموقع

كورنيش أبو ظبي والتناقض الكلي مع الموقع

شكل 26 ـ الانسجام والتناقض وتصدع المرتكز الواقعي للحيز والمدينة

الحالة الثانية: التصدّع في المرتكزات الفكريّة والاجتماعيّة للحيّز والمدينة

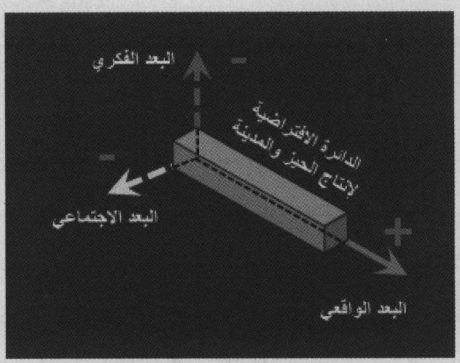

شكل 27 - تراجع المرتكز الاجتماعي والفكري وتضخم المرتكز الواقعي

تعدّ هذه الظاهرة من الظواهر الأكثر تأثيرا والأعنف توجيها للمنظومات المعمارية والعمرانية في تكوّنها وتحوّلها، للاهتزاز المركب الذي تتعرّض له هذه المنظومات وخاصة الأصيلة منها أمام الغزو الحضاري الشامل، وعجزها عن التصدّي للنمط المعماري والعمراني البديل والوافد.

منظر عام لمدينة تونس- الحي اللاتيني — منظر عام للمركز التاريخي لمدينة تونس — مدينة تمغزة التاريخية المهجورة

شكل 28 - الهجرة الكلية والجزية وتصدع المرتكز الفكري والاجتماعي

أو بتغير المجتمع نفسه وتخلّيه بوعي منه أو بدون وعي عن قيمه وهويته وفكره، وهجرته طواعية، نحو آفاق فكرية وفلسفية أو دينية وإيديولوجية أخرى، ليؤسّس نمطا فكريا ومجتمعيّا بديلا ومنظومة معمارية وعمرانية أخرى قد لا تكون بالضّرورة وافدة أو في تناقض مع المكوّنات المادية للموقع الجغرافي.

ولعلّ هذه الظاهرة من أهمّ الظواهر التي تعترضنا اليوم أين ما حللنا، وليس ذلك في مسألة الحيّز والمدينة بل في أدقّ خصوصياتنا اليومية لارتباك المرجعية الفكرية المعمارية والعمرانية ذات البعد التشريعي- العقدي لدى المجتمع العربي الإسلامي وتماهيها من حيث المكوّن المادّي والمفردات الشكليّة وحتّى على المستوى الوظيفي مع المرجعية الفكرية المعمارية الكليانية-الغربية-الكونيّة ذات العمق الفلسفي-الأيديولوجي لاشتراكهما في البعض من خصائص الموروث المعماري والعمراني، باعتبار التفاعل الحضاري المتبادل والقرب الجغرافي والتشابه المناخي.

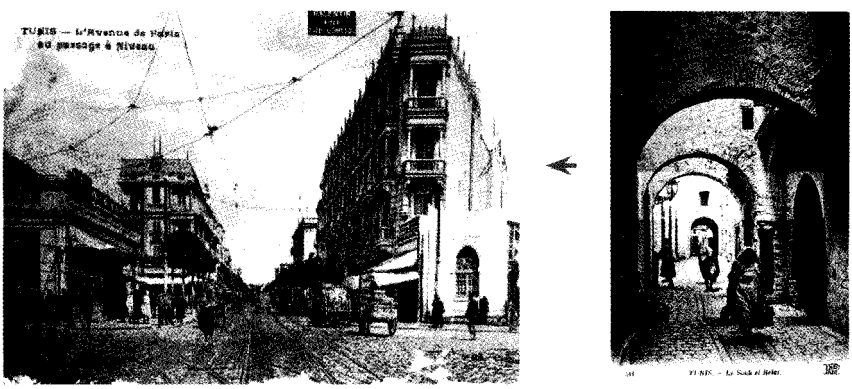

شارع الحرية بمدينة تونس — نهج البلاط بمدينة تونس

شكل 29 - الهجرة نحو نمط معماري واجتماعي وفكري مغاير

أو كإعادة توظيف التراث المعماري والعمراني باعتباره جزء من الواقع نحو أهداف وظيفية أو فكرية -إيديولوجية وفلسفية-دينية مغايرة لأصوله وفروعه في غياب كليّ للمجتمع الوارث وبمعزل عن المقوّمات الفكرية المتداولة أو المؤسسة لهذا الموروث.

ومن الأمثلة على ذلك التوظيف الثقافي والسّياحي أو حتّى الأمني والعسكري للفظاءات التاريخية كالسجون والمعتقلات.

معلم الكراكة من سجن إلى معلم سياحي قرية شنني تطاوين - تونس نزل مرحلة بمطماطة -تونس

شكل 30 - توظيف التراث في غياب المرتكز الفكري والاجتماعي

أو الاستعمالات الفلكلورية للتراث المعماري والعمراني العربي الإسلامي وظهور بعض الأنماط الهجينة التي تحاول محاكاة هذا التراث من حيث الشكل والتفاصيل المعمارية بعيدا عن التواصل معه فكريا واجتماعيا.

وهي واقع أمرها تحمل معها وفي ثناياها وتصميمها نمطا فكريا واجتماعيا مغايرا للواقع الذي احتضنها كما هو الشأن بالنسبة للطراز المعماري العربي-الموريسكي (Arabo-Mauresque) الذي يحمل شحنة فكرية واجتماعية غربية وفي أحسن حالاته يحمل قراءة فنيّة وهندسية للمنظومة المعمارية والعمرانية العربية والإسلاميّة، باعتبار أنّ هذه المحاكاة هي تأويل جمالي لهذه المنظومة وتواصل مع واقعها المادي والحغرافي والتراثي عبر استعمال العقود والقباب والشماسيات وحتى الزخرفة.

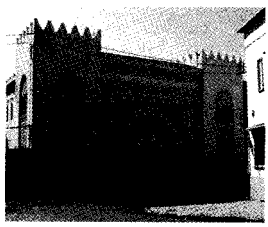

الطراز العربي - المورسكي ، تلمسان

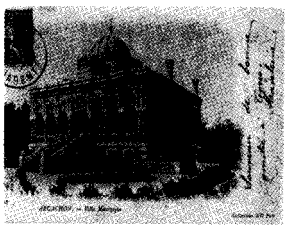

فيلا على الطراز العربي ـ المورسكي

العمارة الفلكلورية - سيدي بوسعيد، تونس

شكل 31 - التواصل مع التراث عبر مكوناته المعمارية في غياب المرتكز الفكري والاجتماعي

وعلى أهمية هذا المنحى في تماهيه المعماري والعمراني مع التيارات الداعية للعولمة وإلى التنصّل من المقومات المحلية والحضارية لثنائي الحيّز والمدينة والتعامل مع الجانب المادّي والشّكلي الّذي يمكن توظيفه فلسفيّا وأيدولوجيا ورمزيا وفقا للمرجعية الغربية - الكونيّة وباعتبار أنّ الانسان في نظرها هو كائن عالمي قبل أن يكون كائنا حضاريا وثقافيا.

ولعله من الضّروريّ التأكيد في هذا المنحى على مفهوم الاستدامة في العمارة والمدينة، البديل الجاهز عن القضايا الجوهرية الأخرى والذي يعزل في حقيقة أمره البعد الاجتماعي والفكري لهذا الثنائي عن واقعه أو بالأحرى عزل المكوّن الواقعي عن المجتمع وعمقه الحضاري والفكري واعتباره المحدد في معالجة المدن الجديدة وفق مفهوم الاستدامة. وهو نوع آخر من التماهي مع الحلول الغربية-الكونية تحت غطاء العولمة رغم أهمّيته القصوى لما تعانيه المدينة اليوم والبيئة عموما من تلوث. وبقطع النظر عما تقدم فإنّ تراجع المرتكز الاجتماعي والفكري في هذه الحالة يؤشّر إلى:

1 - تعامل سطحي ونمطي مع الحيز والمدينة تحت غطاء العولمة الغربية-الكونية.

2 - حلول وتصورات المعمارية والعمرانية تفتقد إلى مرجعية فكرية صلبة.

3 - حلول وتصورات معمارية وعمرانية هشة ومهتزة وشكلية.

4 - تضخم مقاربات الاستدامة كمقاربات بديلة عن الانزلاق الفكري والحضاري.

5 - تضخم المقاربات الإيديولوجية في واقع مهتزّ ومحيط اجتماعي متدنّ.

6 - التخلّي عن المرجعية الفكرية المعمارية والعمرانية وهيمنة الأفكار الوافدة.

7 - هجرة ثنائي الحيز والمدينة نحو منظومة معمارية وعمرانية أخرى مغايرة.

الحالة الثالثة: التصدّع في المرتكزات الفكرية والواقعية للحيّز والمدينة

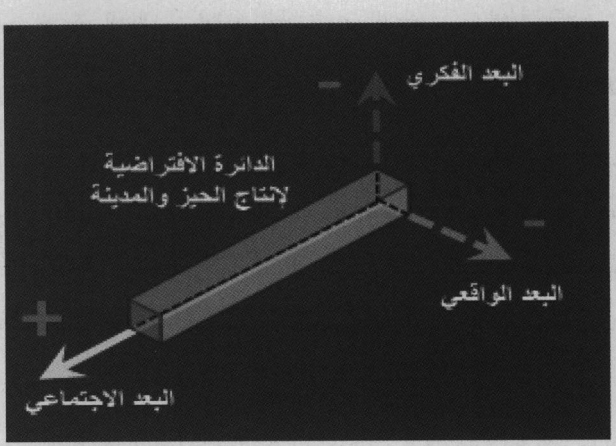

شكل 32 - تراجع المرتكز الفكري والواقعي وتضخم المرتكز الاجتماعي

يتأكّد هذا النمط من الحضور الفعلي للبعد الاجتماعي في تكوّن وتحوّل الحيّز والمدينة بالتوازي مع تقلّص البعد الفكري والواقعي لهذا الثنائي، سواء باستيعاب الوافد منه أو بهجرة الموجود، في الحالات الطارئة مثل التفجّر السكاني أو الهجرة المفروضة بسبب الجوائح الطبيعية أو الظروف الاقتصادية أو الحروب المدمّرة أو غياب الأمن والأمان... والتي يعسر على المجتمع أو السلطة استيعابها أو التعامل معها، لأنه أمام هذه الأزمات تصبح الأولويّة القصوى موجه نحو عملية الإسكان بأقصى سرعة وبأيسر السبل، دون الرجوع والبحث عن المرجعية الفكرية أو الإيديولوجية التي توافقها أو تتناقض معها ودون الأخذ بمقومات الواقع أو بالعمق التاريخي والحضاري للمجتمع المستهدف من قبل هذه العملية.

وتتحوّل هذه المقومات بحكم الضرورة إلى مطالب تكميلية وتحسينية بل قد تصبح في نظر البعض من قبيل الترف والدعة.

أزمات في التجهيزات الضرورية

أزمات في السكن

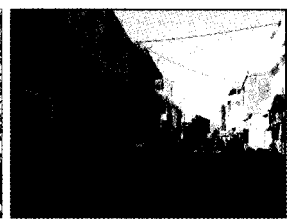

أزمات بيئية وسكنية وصحية

شكل 33 - تضخم الأزمات الاجتماعية

ولئن كانت هذه الظاهرة دوما بؤرة للتوتّرات الاجتماعيّة وللجريمة، يسندها في ذلك الجدل السّياسي والإيديولوجي القائم، فإنّ الحلول المعمارية والعمرانيّة البديلة لم تزد الأمر إلا تعقيدا، سواء بالنسبة للبلدان المتقدمة أو التابعة، من حيث الكثافة السكانية والتجهيزات الأساسية المتوفرة وخاصة منها الرياضية والترفيهية والصحية وحتى الأمنية...

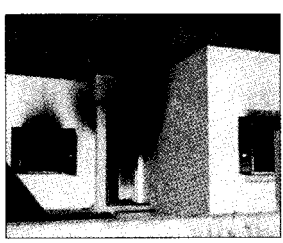

الأمان والحماية

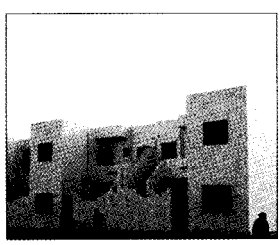

ضيق المساحة المغطات والمفتوحة

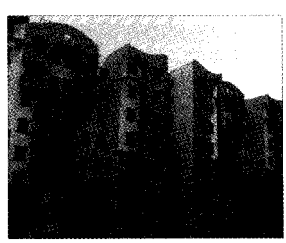

الكثافة السكانية

شكل 34 - الإشكاليات المرافقة للإحياء الاجتماعية البديلة

ممّا أسهم في تفشّي الأزمات الاجتماعية بجميع أنواعها وازدادت العلاقات بين الجوار توترا والعائلة تفككا، إضافة إلى الكلفة العالية ابتداء والشروط المجحفة المرافقة لعملية الاقتناء مع ما يترتّب عن ذلك من ديون وأقساط مالية

مضاعفة أضعافا كثيرة، مما يدفع بالكثير من أصحاب هذه المساكن للبحث عن التوسّع على حساب المساحات الصغيرة المتوفّرة وعلى حساب الشروط الصحيّة والبيئيّة وفي تجاوز واضح للقوانين والنظم المعمارية والعمرانية المنظمة، لتتحول هذه المشاريع إلى ورشات بناء دائمة من الإسمنت والآجر، وإلى أحياء هامشية وفوضوية لم يزيدها لونها الأحمر الدائم إلا خطورة.

الكثافة السكانية والأزمات الأمنية | الورشات الدائمة والمفتوحة | الأزمات البيئية والصحية

شكل 35 - تواصل الأزمات المرافقة للإحياء الاجتماعية البديلة

ومهما يكن من أمر هذه الظاهرة، فإنّ تراجع البعدين الفكري والواقعي كضمان للاستقرار المادّي والمعنوي وتواصلا مع البعد الزماني والمكاني للمجتمع وللحيز والمدينة، وأمام التضخم الفعلي للبعد الاجتماعي، وما يترتب عن ذلك من تصدعات اجتماعيّة واقتصاديّة وبيئية وفكرية... فإنّ هذه الحالة التي تتخذ من البعد الاجتماعي مرجعا ودليلا تؤشّر في غالب الأوقات إلى:

1 - تدنّي المستوى الفنّي والتقني في عملية إنتاج الحيز والمدينة وضياع الهوية.

2 - بروز الفوارق الاجتماعية والخلل العضوي داخل المدينة الواحدة.

3 - بروز ظاهرة البناء الفوضوي وغير المقننة.

4 - ظهور الفوارق الاجتماعية وتعدّد الشخصية للمدينة الواحدة.

5 - فقدان التفاعل الإيجابي والتوازن البيئي بين المدينة ومحيطها الطبيعي.

6 - تناقض الحلول المعمارية والعمرانية مع هوية المجتمع ومتطلباتها.

7 - تضخم الإنتاج المعماري والعمراني لمجابهة الطلب المتزايد.

8 - تضخّم الإشكاليات المعمارية والعمرانية الاجتماعية داخل المدينة.

الحالة االأخيرة: التصدع الشامل للمرتكزات الفكرية والواقعية والاجتماعية للحيز والمدينة:

وهي حالة الانفصام الكلّي والتّبعيّة الشاملة الّتي تصيب المنظومة المعرفيّة المعماريّة والعمرانيّة بأسرها، على المستوى الفكري حيث الهجرة الكليّة للمرجعيّة الفكريّة التي تؤسّس إلى ثنائي الحيّز والمدينة والتغير الكلّي للمجتمع المستهدف من العملية والتخلي عن مقومات الواقع الحاضن لهذا الثنائي.

ويكون ذلك بالانهيار الكلي لهذه المنظومة واندماجها ضمن منظومة أخرى غريبة. كما هو الحال بالنسبة إلى المنظومة المعرفيّة المعماريّة والعمرانيّة التي أوشكت على الأفول إلا ما تبقّى منه من تراث يحتضر، وأفكار تخلّى عنها أصحابها قبل غيرهم وواقع مغتصب من طرز معمارية وعمرانية سريالية رمزية وتفكيكية ومواد إنشائية لا تمتّ لهذا الواقع بشيء.

ولعلّ هذه المرجعية التفكيكية الوافدة مع العولمة وتوسع الفكر الكلياني ـ الغربي الكوني والتي ترفض كل القيم وتتصدّى إلى كل تواصل مع الواقع والتاريخ وحتى مع القيم المنطقية والعلميّة هي البديل الّذي يبشّر به هذا الفكر، لتخرج كامل المنظومة المعمارية والعمرانيّة العربيّة الإسلاميّة من موقع الهوية إلى موقع الانبتات والاندماج الكلّي في المنظومة الغربية ـ الكونيّة.

ونسوق المثل التالي الذي يلخص هذا الانبتات الكلي والهجرة النهائية لثنائي الحيّز والمدينة العربيّة والإسلاميّة.

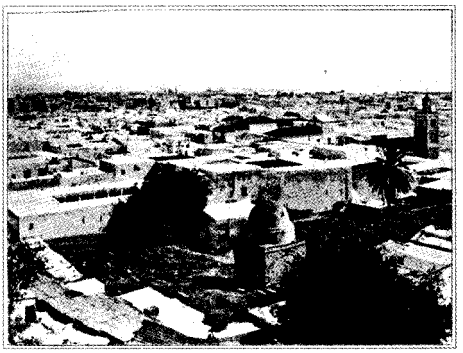

النسيج المعماري والعمراني العربي الإسلامي التشريعي-العقدي

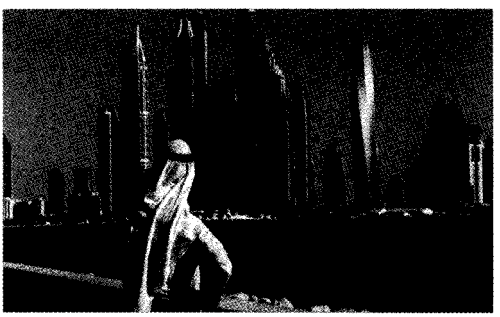

الهندسة المعمارية في أبوظبي . الامارات

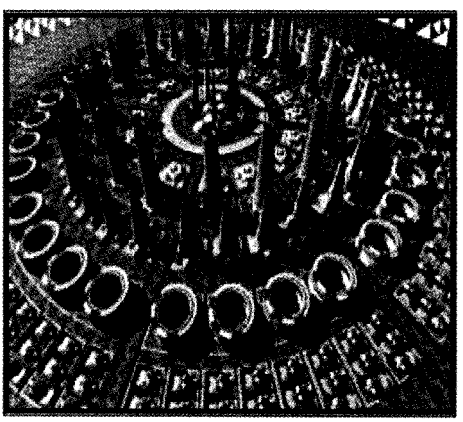

المدينة العربية الإسلامية التفكيكية

شكل 36 ـ ثنائي الحيز والمدينة العربية والإسلامية: من الهجرة الجزئية إلى الهجرة التفكيكية الكلية

خاتمة

وخلاصة القول أنه كلّما خرجت هذه العناصر وهذه الأبعاد الثلاث عن موقع الفعل والحضور في بناء وتشكيل دائرة الإنتاج المعماري والعمراني درجة، أو وقع استبدالها بعناصر وافدة إلاّ ونحت هذه الدائرة درجة نحو اتّجاه دائرة فعل أخرى. وأصبح تبعا لذلك نتاجها المعماريّ والعمرانيّ جزء من هذه الدائرة الإنتاجيّة الجديدة، فكرا وتصوّرا وإنجازا، قد تؤدي في الأخير إلى نتيجة معماريّة وعمرانيّة مهتزّة أو مستوردة أو منبته وحتّى عبثية.

في هذه الحالة سيكون التعامل مع الموروث المعماريّ والعمرانيّ أي مع الحيز والمدينة فكرا وممارسة، من خلال موقع فعل حضاري وثقافي آخر، وستكون أدوات البحث المستعملة ومناهجه ومفاهيمه، هجينة ومسقطة إسقاطا تعسفيّا على هذا الموروث المعماري والعمراني، الفكريّ منه والماديّ، وفي تناقض مستمرّ مع جوهره وشكله ومتطلباته ليصبح هذا الموروث عرضة للمواقف المتشنّجة وللتقييم العاطفي غير الموضوعي، الذي لا يغيّر من الأمر شيئا، سواء في تهجّمه على هذا الموروث أو في إطرائه له وتقديسه، بل على العكس ستكون ارتداداتها خطيرة جدّا على هذا الثنائيّ، قد تؤدّي في الأخير إلى التعجيل بتدميره فكريّا وماديّا، وبترحيله نحو منطقة فعل حضاريّة أخرى غريبّة عنه، وجعله حبيسا لها.

من هذا المنطلق ووفقا لهذه المنهجيّة التحليليّة، الّتي ترصد تفاعلات هذه العناصر مع بعضها البعض - بقطع النظر عن موقع فعلها الحضاريّ أو الفكريّ ـ الثقافيّ أو الجغرافيّ- التاريخيّ ـ يمكن لنا رصد الأبعاد الحقيقيّة المحدّدة للهوية المعمارية والعمرانية، سواء كانت وطنية أو قوميّة أو ثقافيّة أو حضاريّة، ومدى هجرتها نحو منطقة فعل حضارية أخرى وتأثرها بأفكار وتقنيات وافدة، وما يتولّد عن فقدان هذه الهويّة من أثر سلبيّ على التوازن الفكريّ والميداني والبيئي لثنائيات الحيز والمدينة وللمنظومات الفكريّة والمعماريّة والعمرانيّة مهما كانت انتماءاتها والثقافيّة والحضاريّة.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- ابن عربي (محي الدين):**إنشاء الدوائر**، مطبعة بريل، ليدن، ط1، 1917.

ثانيا: المراجع

1 ـ الكتب

أ - العربية

- الديالمي(عبد الصمد): **المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب ـ مقاربة جنسية**، دار الساقي و رابطة العقلانيين العرب، بيروت، ط1، 2008.

ـ السبيعي (عبيد): **نحو تأصيل العمارة الإسلاميّة**، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعماريّة والتعمير، تونس، 1982،

- السبيعي (عبيد): **الحيز والمدينة وبناء المنظومة الفكريّة المعماريّة والعمرانيّة العربيّة الإسلاميّة**، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والعمرانية ، تونس، 2007/ 2008.

- لعيبي (شاكر): **العمارة الذكورية**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 2007.

- مجموعة مؤلفين: **إشكالية التحيز في الفن والعمارة: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**، دار السلام، القاهرة، ط1، 2008.

ب ـ الأجنبية

- M'HALA (Moncef) et autres : *les compétences des citadins dans le monde arabe, penser , faire et transformer la ville* / sous la direction de Isabelle Berry-Chikaoui et Agnés Deboulet, Karthala, IRMC, Paris- Tunis, 2000.

2 ـ المجلات

- السيد (وليد أحمد): «نحو أطروحة نظرية لإعادة قراءة العمارة/ المدينة العربية الإسلامية»، ضمن مجلة **لونارد**، العدد الرابع، السنة الأولى - يوليو 2011.

3 ـ المواقع الإلكترونية

http://cultpatr.blogspot.com/ Visitée le 15/07/2018.

https://www.ajib.fr/mosquee-cologne-allemagne/ Visitée le 15/07/2018.

https://france3-regions.francetvinfo.fr,Visitée : 15/07/2018.